

الخطبة الخامسة

عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه

بقلم:

حمدي شفيق

(1)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد أحوال الرعية كعادته كل ليلة عندما سمع امرأة تقول لابنتها: قومي إلي اللبن فأخلطيه بالماء. أبت الفتاة أن تفعل قائلة: يا أماه إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد نهى عن غش اللبن بالماء. ردت الأم: وهل يرانا عمر الآن إذا فعلنا؟ قالت الفتاة الصالحة: يا أماه إذا كان عمر لا يرانا فإن ربه يرانا. مضي الأمير حامدا ربه أن جعل في أمته مثل هذه الزهور الواعدة، وأسّر رضي الله عنه في نفسه أمرا. في الصباح استدعي المرأة وابنتها، وسألها عما حدث بينهما البارحة، فقصتا عليه ما حدث بكل الصدق والأمانة. تذكر الفاروق أن ابنه عاصما قد بلغ مبلغ الرجال ولم يتزوج بعد. وهل يجد عاصم زوجة صالحة موفورة العقل والذكاء مثل هذه الفتاة الأمانة؟

دعا الفاروق ابنه وأشار عليه بخطبة الفتاة ووافق الابن الصالح من فوره.

وكان الأمير الملمه كان يستشف ما وراء حجب الغيب، ولا عجب فهو الفاروق الذي كان ينطق بالكلمة فينزل القرآن الكريم بها من فوق سبع سموات!!

فقد ولدت هذه الزوجة التقية لابنه عاصما بنتا سماها ليلى كان لها فيما بعد شأن عظيم. وما كان غريبا أن تشب ليلى عن الطوق في بيت الخلافة الراشدة فترضع التقى والعدل والعز ومكارم الأخلاق، وتتفتح أكامها يوما بعد يوم، مبشرة بفجر جديد يخلق في رحمها ليعيد إلي الأرض ما فقدته حيناً من الدهر، بعد أن ودعت أربعة من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته، وتحولت الخلافة الراشدة إلي ملك كريمة مغتصب يتوارثه بنو أمية بغير رضا أو شوري من المسلمين.

وقد كان من كرامات الفاروق عمر رضي الله عنه أنه يلهم بالأمر فيحدث كما توقعه بلا زيادة أو نقصان. وهناك قصته المشهورة عندما صعد إلي المنبر ليخطب الجمعة وفجأة صاح: يا سارية الجبل الجبل ومن استرعي الذنب الغنم فقد ظلم. ويومها عجب الناس وظنوا بعقل أميرهم الظنون، ولكن شاء الله أن يأتي البشير بعد ذلك بانتصار جيش سارية علي الفرس في نهاوند، وأخبرهم بأنهم سمعوا في تلك الجمعة التي وقع فيها القتال صوتا يقول يا سارية الجبل الجبل فاحتموا بالجبل وكان هذا سببا لتحقيق النصر بإذن الله.

ومنها أيضا أنه كان يردد كثيرا وكأنه يناجي نفسه بما أطلعه الله عليه سبحانه وألهمه إياه:

"ليت شعري من هذا الذي بوجهه شجة- أثر جرح- من آل عمر يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا!؟"

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه لا يكفّ عن التبشير بخلافة عمرية أخري قبل قيام الساعة. وكان يقول: يا عجباً، يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر الخلافة يعمل بمثل عمل عمر. وكانوا يظنون أنه سيكون بلال بن عبد الله بن عمر، لأن في رأسه علامة تشبه تلك التي جاءت بها الآثار. لكن القدر كان يحتفظ بها لحفيد فتاة أمينة اتقت ربها، وأبت ذات ليلة أن تبيع دينها بقليل من الماء تزيد به وزن اللبن.

تزوجت ليلي بنت عاصم بن عمر بالشاب الصالح عبد العزيز بن مروان الذي خرج مع أبيه مروان بن الحكم إلي الشام. وقدّر الله للأب أن يلي الخلافة ، فجعل الأمر من بعده لابنه عبد الملك ثم لأخيه عبد العزيز. وفي سنة 65 بعد الهجرة النبوية الشريفة تولى عبد العزيز بن مروان حكم مصر. وفي حلوان ولدت ليلي ابنها عمر بن عبد العزيز . كانت القنم وأموال الخراج تتدفق علي بيت المال من كل حدب وصوب، ولم يكن أمير مصر يأل جهداً في التوسعة علي الرعية من مال الله . وكان يحرص علي تكريم العلماء والصالحين ومنهم عبد الله بن عمر الذي كان يتلقى الدنانير من عبد العزيز بن مروان فيوزعها كلها علي الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وغيرهم من المستحقين. وكان عبد العزيز يقول لجلسائه: عجباً لمؤمن يوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه فيحبس مالا عن عظيم أجر وحسن ثناء!؟

أحضروا إليه ذات مرة أمواله ليحصيها فإذا هي أكثر من ثلاثمائة مد من الذهب، وهو قدر يعادل ملايين الدنانير، لكن الرجل الصالح لم يعتر بكثرة المال ولم يفخر علي جلسائه بنعمة الله الوافرة، بل انهمرت الدموع علي خديه وهو يقول: والله لوددت أنه يعر (أي مخلفات الإبل) ولوددت أني لم أكن شيئاً مذكوراً، وددت أن أكون هذا الماء الجاري أو نباتة بأرض الحجاز. كان عبد العزيز بن مروان يشعر بثقل التبعة الملقاة علي كاهله، و يعلم أنه سيحاسب علي ما أعطاه الله من السلطة والمال حساباً عسيراً يوشك أن يلقي به في أعماق الجحيم ما لم تدركه رحمة الله ومغفرته. ولهذا كان حريصاً علي الإنفاق من ماله ما استطاع إلي ذلك سبيلاً، وكان يتقي الله في أهل مصر، ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يشب أولاده علي شاكلته.

(2)

من بين أولاد عبد العزيز بن مروان كانت للصغير عمر مكانة خاصة في قلب أبويه. كانا يعلمان أن له شأنًا أخبر عنه جده الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعم والدته عبد الله بن عمر وعدد كبير من الصحابة والتابعين الذين أجمعوا علي أن أعدل حكام بني أمية قاطبة سيكون فتى برأسه شجة (إصابة)، وينتهي نسبه إلي أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه. ولم يكن هذا الأشج سوى الصغير عمر بن عبد العزيز الذي تحققت الآية فيه مبكراً.

دخل مرة إلى إصطبل خيول أبيه ليلهو ويلعب فركله جواد في رأسه. ذاب قلب عبد العزيز وهو يمسح الدماء الغزيرة من رأس طفله، وفزعت أمه ليلى بنت عاصم، لكنهما أيقنا منذ تلك اللحظة أن الخلافة الراشدة الموعودة توشك أن تصادف موضعاً من حفيد ابن الخطاب. راح عبد العزيز يخفف ألام الطفل ويهون علي زوجته قائلاً: " إن كنت يا ولدي أشج بني مروان أنك إذا لسعيد". وما له ألا يكون هو وقد كانت أمه تدخل عليه في طفولته المبكرة ، فإذا هو يبكي لذكر الموت والحساب. كان الصغير قد أتم حفظ القرآن الكريم في فترة قصيرة، وأراد أبوه أن يجعله معه في مصر حيث ولايته، لكن الفتى الذي لم يكن قد بلغ الرشد بعد قال له: يا ابتي إني أرغب في أمر لعله يكون أنفع لي ولك؟ سأله أبوه: وما هو؟ أجاب عمر: ترسلني إلي المدينة فأجلس إلي فقهاها لأتعلم منهم وأتأدب بآدابهم. كان رأى الصغير العبقرى صائباً ، فأرسله أبوه إلي صالح بن كيسان رضي الله عنه- وكان من كبار فقهاء المدينة- ليعلّمه. وفي مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم بدأت مرحلة جديدة من حياة الفتى الذي تصنعه الأقدار لأمر عظيم. وكان من حفظ الله له أنه خطا إلي المراهقة والفحولة في المدينة بعيداً عما انغمس فيه أقرانه وبنو عمومته من ملذات ونعيم زائل بأرض الشام التي تحولت في عهد الأمويين الي بلاد للفتنة والتكالب علي حطام الدنيا تشبها بأباطرة الرومان وأكاسرة الفرس. وشتان ما بين فتى يستهل صباه بحفظ القرآن الكريم وما استطاع من الفقه وحديث الرسول صلي الله عليه وسلم والصبر علي ملازمة كبار الفقهاء من الصحابة والتابعين ليل نهار، وآخر يشب بين أحضان الجوارى ونعيم القصور الذي ينسي أهلها أمر الآخرة والحساب، فيقتل فيه الرجولة ويعكر صفاء الذهن ويترك الشاب مسخاً مشوها لا يكاد يصلح لشيء.

(3)

ربما لم يعرف تاريخ ولاية بني أمية أشر ولا أخبث من الحجاج بن يوسف الثقفي طاغية العراق الذي باع دينه بدنيا بني مروان بن الحكم، و سفك دماء مئات الألوف من المسلمين، وضرب وجوههم، وشرّد أطفالهم ونساءهم، واعتقل أشرفهم، وأذل ساداتهم في سبيل تثبيت دعائم الملك الأموي. أجل إنه الحجاج دعوة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما علي أهل العراق الذين فسقوا ونافقوا ولم يسلم أمير من أذاهم وشقاقهم وخيانتهم. فقد جاءت الرسل إلي عمر رضي الله عنه يوماً ليخبروه بأن العراقيين قذفوا الوالي علي منبره بالحصى . غضب عمر حتى سها لأول مرة في صلاته، وعندما فرغ دعا علي أهل العراق قائلاً: " اللهم عجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجابرة لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسينهم ".

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يدعو علي أهل العراق بعد أن خذلوه قتلا: اللهم كما انتمنتهم فخانوني ونصحت لهم فغشوني ، فسلط عليهم فتي ثقيف الذئال الميآل يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية. وهو الطاغية المبير (المهلك) الذي قال عنه رسول الله صلي الله عليه وسلم " يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير ". كما أخبرت السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

لم يكتف الحجاج بسفك الدماء الذكية أنهارا بلا ذنب أو دليل ، وإنما أضاف إلي ذلك كباثر من الذنوب لا تحصي ولا توصف . كان يتطاول علي كبار الصحابة بما لا يجرؤ علي النطق به مسلم، رغم الإجماع المعروف على كفر من يسب صحابة الرسول صلي الله عليه وسلم. وكان لا يتورع عن فعل أي شئ ينافق به حكام بني مروان ويرضيه عن و لو بسخط الله عز وجل وقهر الأبرياء العزل بلا جريرة. ومن نلك أنه بعث إلي عبد الملك بن مروان يحرضه علي خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد وتولية ابنه الوليد بن عبد الملك بدلا منه. وكان حكام بني أمية منذ عهد معاوية بن أبي سفيان قد دأبوا علي توارث السلطة بلا رضا من المسلمين أو أعمال للشورى التي أمر بها القران الكريم. فكان الحاكم الأموي يبعث في الأمصار بالبيعة لمن يشاء من أولاده، فمن أبي البيعة من الرعية فإن مصيره الموت علي الفور بسيوف الولاة الطواغيت . كذلك أخذ مروان بن الحكم البيعة لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز رغبا ورهبا، لكن عبد الملك بن مروان بتحريض من الحجاج الثقفي طمع في تولية ابنه الوليد بدلا من أخيه ، فكتب إلي الآخر- وكان عبد العزيز واليا علي مصر في نلك الوقت- يطلب منه التنازل عن ولاية العهد للوليد بن عبد الملك .

رفض عبد العزيز مطلب أخيه الطامع، ورد عليه مرشحا لابنه أبي بكر بن عبد العزيز بدلا من الوليد. و ساءت علاقات الأخوين لنلك السبب، فأرسل عبد الملك إلي عبد العزيز يأمره بإرسال خراج مصر إليه خلافا لما تعارفا عليه من قبل . فقد كان والى مصر لا يرسل شيئا من الخراج إلي الخليفة الأموي بدمشق ، وينفقه كله في مصالح المصريين. ولجأ عبد العزيز إلي ملاطفة أخيه حتى لا يرهق أهل مصر بدفع الخراج ، فكتب إليه يقول: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا عمرا لا يبلغه أحد من أهل بيتنا إلا كان بقاؤه بالدنيا قليلا ، وإني لا أدري ولا تدري أنت أيضا أينما يأتيه الموت أولا ، فإن رأيت ألا تعتب علي بقية عمري فافعل . تأثر عبد الملك بالرسالة فكف عن محاولات إرغام أخيه علي التنازل عن ولاية العهد وترك الأمر لله.

(4)

لم يجد حاسدو الفتى الأموي الناضر له عيبا سوي المبالغة في ارتداء أفخر الثياب وأجودها وأغلاها ثمنا.

كانت له أموال تدر ريعا سنويا يزيد علي أربعين ألف دينار، لكنه لم ينس الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فقد ورث الكرم والمروءة ومحبة المساكين، وهو وإن كان مترفا ناعما فإنه أيضا شب بين فقهاء مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم ومن بقي علي قيد الحياة من أصحابه الأبرار وأتباعهم الصالحين. ولهذا كان يفتي إلي الحق عندما يذكره أحد به، ويقضي الأيام والأسابيع يحاسب نفسه علي أنني هفوة خشية أن يميل بها ميزانه يوما تشخص فيه القلوب والأبصار .

تأخر الصبي ذات يوم عن صلاة الجماعة فسأله معلمه صالح بن كيسان: ما شغلك عن صلاة الجماعة؟

أجاب عمر: كانت مربيتي تسوي شعري!

قال له المعلم: قدمت هذا علي الصلاة؟! وأرسل إلي والده بمصر يخبره بما حدث. غضب عبد العزيز بن مروان بشدة علي ولده، وأرسل إليه من مصر رجلا وأمره ألا يكلم ابنه حتى يخلق شعره كله تأديبا له علي تأخير الصلاة في تلك المرة اليتيمة . هكذا كانوا يربون الأطفال ويصنعون منهم ياذن الله رهبانا بالليل فرساتا بالنهار. وهكذا نشأ عمر بن عبد العزيز، حتى قال عنه معلمه وهو لم يزل صبيبا غضا: ما علمت أحدا الله أعظم في صدره من هذا الغلام.

كان عمر يغشي مجالس العلم والفقهاء والذكر في المسجد النبوي الشريف فيسمع من أنس بن مالك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وسالم بن عبد الله وعروة بن الزبير وغيرهم من كبار الفقهاء والصالحين في عهده. وربما شدد عليه بعضهم وأغلظ له القول وهو يعظه، فلا يغضب الفتى الأموي، وهو ابن حاكم مصر وابن شقيق الخليفة الأموي الذي ترتعد أوصال أكثر الرعية فرقا من سيفه، وتطمح أبصار الكثيرين إلي ذهبه البراق وعطاياه المسرفة للأتصار والحواشي.

كان عمر يتواضع لهؤلاء الأعلام الفحول، وكانوا هم لا يعبأون بجاه الحكام وسلطانهم وما في أيديهم من أموال، لأنهم كانوا يزنون الدنيا بالميزان الصحيح، فلا يجدونها تساوي جناح بعوضة أو ما دونه، ولا يغنيهم منها إلا أن يعبروها بسلام إلي آخرة خير وأبقي. علم عبيد الله عبد الله بن عتبة رضي عنه إن تلميذه عمر بن عبد العزيز تحدث مرة بلهجة غير مقبولة عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

كان الصبي يردد ما اعتاد عليه الأمويون منذ وقع الخلاف علي الحكم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

فأعرض عبيد الله عن تلميذه طويلا ثم نهره قائلا: متي علمت أن الله سخط علي أهل بدر - ومنهم علي- بعد أن رضي عنهم؟! فهم عمر ما يقصده شيخه فهتف: معذرة إلي الله ثم إليك ، والله لا أعود إلي مثلها أبدا، فلم يسمعه أحد بعد ذلك يذكر عليا إلا بكل خير.

(5)

مات عبد العزيز بن مروان في السنة الخامسة والثمانين بعد الهجرة النبوية الشريفة. ورغم تأثر عبد الملك بن مروان بوفاة أخيه ونائبه علي مصر، إلا أنه لم يستطع أن يكتف فرحته بالفرصة التي واثت ابنه الوليد ليكون وليا للعهد بعد وفاة عمه. إنه الحرص علي الملك والتشبه المرذول بالفرس والرومان، وليست الخلافة التي كانت في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم. وسرعان ما انتهز عبد الملك الفرصة فأرسل إلي نوابه في البلاد قبل إن تجف الدماء في عروق أخيه المسيجي يأمرهم بأخذ البيعة لابنه ، فبايعت الرعية خشية سيوف الجبابرة في دمشق و سائر بلاد المسلمين حتى مكة والمدينة ، لكن رجلا واحدا في مدينة الرسول العظيم أبي البيعة الجائرة بحد السيف. إنه عالم المدينة التابعي الجليل سعيد بن المسيب رضي الله عنه . أنكر الرجل الصالح ما يفعله عبيد السلطة والجاه الذين آثروا أنفسهم وأهليهم بالأموال والخراج والغنائم، ولم يجعلوا حدا فاصلا بين أموالهم الخاصة وأموال المسلمين، وجاهر بنقد سلوكيات الأسرة الأموية الحاكمة، ودعا الناس إلي رفض البيعة التي لا تقوم علي أساس من الاختيار الحر الهادف إلي تحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين. وهنا أسفرت السلطة الغاشمة عن وجهها القبيح، فأرسل عبد الملك بن مروان إلي نائبه علي المدينة هشام بن إسماعيل يأمره بالقبض علي العالم الجليل والتكيد به علي مرأى ومسمع من أهل مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم ليكون عبرة للناس فيبادروا بالامتثال والطاعة للسادة الحكام.

ورأي الفتى اليافع عمر بن عبد العزيز مشهدا أسخطه وملا نفسه الذكوة كربا وأسي. اقتاد جنود الوالي الغشوم هشام بن اسما عيل العالم الجليل ذات صباح إلي وسط المدينة مكبلا بالأغلال، وراحت سياطهم الفاجرة الآثمة تلهب ظهره الطاهر في جنون وحشي ،والناس يرتعدون هلعا، وكلهم يآسي لما أصاب الشيخ المبارك، لكن أحدا لا يجروء علي التصدي للطفة الذين سفكوا الدماء وأثلوا الرقاب في سبيل تنفيذ رغبات ملوك بني أمية . لم يكتفوا بجلد ولي الله أمام أهله وتلاميذه، بل ألبسوه ثيابا من الشعر ووضعوه علي ظهر جمل أجرد وطافوا به مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم حتى قالت له امرأة في حسرة: ما هذا

الخزي يا سعيد؟! تقصد أن تلومه علي ما صنعه بنفسه، فرد عليها في يقين موضحا لها أن الخزي ليس في تعرضه للعذاب والبطش، ولكن الخزي والذل في طاعة الحكام الظالمين وتلبية أوامرهم ورغبتهم . وقد أودع الفقيه العظيم سجن المدينة مرة أخرى، لكنه أصر علي موقفه المناهض للظلم و الباطل والطغيان. ولعل هذا كان أعظم درس تلقاه عمر بن عبد العزيز من أستاذه ومعلمه سعيد بن المسيب رضي الله عنه طول فترة مكثه بالمدينة.

إن العالم أو الداعية لا ينبغي له أن يشتري بآيات الله وأحكامه ثمنا قليلا تافها من دنيا الناس الفانية، وإنما عليه أن يقف- ولو وحيدا- ليصدع بكلمة الحق في وجه السلطان الجائر مهما ناله من بطش و أذى، وهذا أفضل الجهاد عند الله عز وجل.

(6)

استدعي عبد الملك بن مروان ابن شقيقه عمر بن عبد العزيز إلي دمشق بعد وفاة أبيه. كان عمر قد بلغ مبلغ الرجال وتجمعت فيه كل الصفات التي ترجي في الشباب وهي التقوى والعلم والفتوة والجمال وغني النفس و المال. وماذا يبغي عبد الملك بن مروان بعد ذلك من شروط فيمن يتزوج ابنته الحسناء فاطمة ؟ إن عبد الملك بما لديه من فطنة و فراسة كان يرى في عمر دون باقي أبناء أخوته وأقاربه من الأمويين نموذجا نادرا، ولهذا كان طبيعيا أن تقع عينه الخبيرة الفاحصة عليه هو بالذات ليرشحه زوجا لأكرم الناس عليه وأحبهن إليه وأحظاهن لديه وهي ابنته الوحيدة فاطمة.

وكان عبد الملك يقرب عمر إليه ويدنيه من مجلسه ولا يخفي إعجابه بعلمه وتقواه. ولم ينس قبل وفاته أن يوصي ابنه الوليد بأخته فاطمة وزوجها عمر بن عبد العزيز. كما أثرها بأعلى الحلبي والجواهر التي كانت تحمل إليه من غنائم الفتح في بلاد فارس والروم وأفريقية وغيرها. علي أن هذا لم يؤثر علي مشاعر عمر رضي الله عنه الذي كان ينقم علي عمه إسرافه مثل غيره من حكام بني أمية في قهر الرعية وكثرة المظالم التي ارتكبتها في سبيل المحافظة علي عرشه والقضاء علي شتى الحركات المناوئة لحكمه. كما لم ينس عمر بن عبد العزيز أن عمه جاء بالطاغية الثقفي الحجاج بن يوسف ، وأطلق يده في البطش بكل من يخالف النظام الأموي وحتى أم القرى البلد الحرام لم يتورع جنود الحجاج عن انتهاك حرمتها ، وضربوا الكعبة المشرفة بالمنجنيق، وأحرقوا أستارها، وأفسدوا موسم الحج، وقتلوا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه لمجرد أنه رفض مبايعة أحد بعد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

كذلك بطش الحجاج - برضاء من عبد الملك - بأهل العراق والمدينة وبلاد الفتح في فارس وما وراءها، كما لم يسلم هشام بن إسماعيل نائب عبد الملك علي المدينة وغيره من الولاة من ارتكاب العديد من الجرائم المنكرة والمظالم الفاجرة نزولا علي أوامر بني مروان.

وقد فزع عمر بن عبد العزيز عندما بلغته مقولة عمه عبد الملك: قد أصبحت لا أفرح بالحسنة إذا فعلتها ، ولا أحزن للسيئة إذا ارتكبتها ، فقد أدرك أنها دليل كما قال سعيد ابن المسيب رضي الله عنه علي موت قلبه وأنه صار من الغافلين.

كذلك كظم عمر غيظه وهو يسمع عمه قبيل موته يوصي ولي عهده الوليد بتكريم الحجاج بن يوسف طاغية العراق بحجة أنه هو الذي: " مهد لبني مروان البلاد وقهر الأعداء وخلص لعبد الملك وبنية الحكم وشتت الخصوم"!! ثم وهو يوصيه أيضا قائلا له: إذا أنا مت فادع الناس إلي ببيعتك. فمن أبي فاضرب عنقه بالسيف !!

يا إلهي. حتى وهو علي فراش الموت لا يتورع عن إسداء النصائح الآثمة والأوامر الفاجرة إلي ولي عهده بأن يواصل السير علي درب القهر والظلم والطغيان، فيكرم السفاح الدموي الثقفي ، ويطيح برقاب المسلمين إذا رفضوا توارث الحكم والاستتار بالسلطة!! لهذا لم يكن عجيبا أن تسود وجوه هؤلاء بعد موتهم وأن يندم أحدهم ويلطم وجهه بيديه- وهو عبد الملك نفسه- ويلوم نفسه لأنه قبل الحكم وفرط في طاعة الله عز وجل.

(7)

استهل الوليد بن عبد الملك عهده بالبداية في بناء المسجد الأموي الكبير في دمشق عاصمة الخلافة في ذلك الوقت. وقد استمر تشييد هذا الصرح الحضاري الهائل طوال فترة خلافة الوليد وهي تسع سنوات ونصف السنة. ويروي أنه لم ينفق علي بناء المسجد درهما واحدا من أموال المسلمين وإنما انفق عليه 11 مليون ديناراً من ماله الخاص. وأبي بشدة أن يتحمل بيت المال شيئا من تكاليف بناء المسجد. ورغم اجتهاده في استمرار الفتوحات الإسلامية وإرسال الجيوش بصفة دائمة إلي بلاد الروم وأفريقيا وغيرها، إلا أنه كان لا يتورع عن قمع المعارضين بقسوة وشراسة تماما كما أوصاه أبوه وهو علي فراش الموت. وشاء قدر الله إن تمر بالناس نفحات من رحمته ، فقرر الوليد عزل هشام بن إسماعيل عن إمارة مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم في سنة 87 بعد الهجرة، وعيّن بدلا منه ابن عمه وزوج أخته عمر بن عبد العزيز. كان عمر قد بلغ خمسا وعشرين سنة عندما ركب بغيره في شهر ربيع الأول من هذا العام إلي يثرب ليباشر أعباء الولاية. نزل الوالي الشاب دار جده مروان بن الحكم. وجاء الناس أفواجا يصفحون الأمير الجديد بسعادة بالغة، و ألسنتهم تلهج بحمد الله تبارك وتعالى أن جعل لهم بعد العسر يسرا، ورفع عنهم ظلم الطاغية هشام بن إسماعيل، واستبدله بالفتي التقي الذي تربى بين ظهرانيهم وتشرب العلم والورع من كبار علمائهم وفقهائهم. وكان أول ما فعله عمر رضي الله عنه بعد صلاة الظهر بالمسجد النبوي الشريف هو دعوة عشرة من كبار فقهاء

المدينة هم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبو بكر بن سليمان بن خليفة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت.

دخل العشرة الكبار إلي مجلس الأمير الشاب ليعرفوا لماذا دعاهم وليسمعوا كيف يحكم هذا الفتى المدينة، وهو الذي توسموا فيه الخير والصلاح منذ جاء إلي مجالسهم طفلا غضا يطلب العلم. حمد عمر ربه وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال موجها حديثه لأستاذته العشرة: "إني لا أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم. فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغتكم عن عامل لي مظلمة- ظلما للرعية- فاستحلف من بلغه ذلك أن يطلعني عليه". بهذه العبارات المشرقة بدأ الأمير الشاب ولايته علي مدينة رسول الله. لقد اختار مجلسا للشورى يضم كبار الفقهاء ووجهاء المسلمين من ذوي العلم والكفاية والعدالة والمكانة ليشاركوا في تحمل المسؤولية ويشيروا عليه بالرأي الصواب، لأن يد الله مع الجماعة، ومن استبد برأيه فقد هلك. وهو أيضا يشدد التنبيه علي هؤلاء الصالحين الصادقين ألا يتركوا واقعة تبلغ مسامعهم عن أي عامل من عماله يظلم فيها أحدا من الناس إلا أبلغوها له شخصيا، حتى يتخذ فيها إجراء رادعا يعيد الحق إلي أهله، ويعاقب العامل الظالم بشدة كي لا يعيد الكرة. خرج العلماء العشرة من مجلس عمر بن عبد العزيز وهم يدعون له بالتوفيق والوعون والرشد. وكانت الخطوة التالية التي أقدم عليها عمر هي تمكين أهل المدينة من نيل حقهم المشروع في القصاص من الحاكم الظالم هشام بن إسماعيل الذي أذاقهم ألوان العذاب والتنكيل طيلة 4 سنوات. ومن آيات أولياء الله الصادقين أنهم يعفون عند المقدرة ولا يجزون بالسينة السيئة، بل يحسنون إلي من أذاهم ويطش بهم، وهذا ما فعله العالم الجليل سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين رضي الله عنهما بهشام بن إسماعيل.

(8)

وربما كان من خصائص حكام بني مروان أنهم خلطوا أعمالا صالحة بأخرى سيئة ولم يخل أحدهم من مناقب حسنة وإن أساء وتعدي وظلم.

وهم في جميع الأحوال بشر ابتلاهم الله بالرعية وابتلي الرعية بهم وابتلي الطائفتين بالدنيا. وليس مستحيلا أن تكون للجواد الأصيل كبوة وربما كبوات، وأمر الجميع إلي الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد الأمويين بصفة عامة، وكان الجهاد في سبيل الله فريضة ألزم بها الخلفاء أنفسهم وجيوشهم، وأوصوا بها أولادهم ومن يأتي بعدهم، واجتهدوا جميعا في العبادة والعلم ومحاربة الفتن والخرافات والأباطيل ونشر

دعوة الإسلام وتعظيم شعائر الله. وعلي سبيل المثال فقد كان عبد الملك بن مروان فقيها من المعدودين بالمدينة قبل توليه الخلافة، وكان ابن عمر رضي الله عنه يرشحه للإفتاء وتدريس العلم. وقال أبو الزناد: فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان. وفي عهد عبد الملك اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بضم بلاد ومناطق من المغرب وأرمينية و بلاد الفرس و الروم. وكان ابنه الوليد حريصا علي استمرار الجهاد في عهده، وفتحت علي يديه الهند والأندلس وأفغانستان وأذربيجان وغيرها. وكان من أكثر الخلفاء اهتماما بالتشييد والعمران وخاصة بناء المساجد ومنها المسجد الأموي العريق بدمشق، والمسجد النبوي الذي أصدر أمره إلي واليه علي المدينة - عمر بن عبد العزيز- بإعادة بنائه وتوسعته بإضافة حجرات أزواج الرسول صلي الله عليه وسلم وشراء ما حوله من الأراضي والبيوت بثمن عادل أو نزعها من أصحابها بثمن أيضا إن رفضوا البيع - في سبيل توسيع مساحة مسجد النبي صلي الله عليه وسلم.

وكعادته جمع عمر بن عبد العزيز من بقي حيا من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم و فقهاء المدينة العشرة وكبار الصالحين وذوي المكانة في يثرب، وقرأ عليهم كتاب الوليد. كان هدم المسجد النبوي أمرا شاقا علي النفوس، وقال الفقهاء و الصالحون أن حجرات زوجات الرسول صلي الله عليه وسلم المتواضعة يجب أن تبقى علي حالها ليعتبر بها الحجاج والزوار القادمون من شتي بلاد المسلمين ويقتدون بما تمثله من الزهد والبساطة والفتاة من الدنيا باليسير، فقد كانت حيطانها من الطوب اللبن المصنوع من الطين الذي لم يدخل النار، وكانت سقفها من جريد النخل، وعلي أبوابها المسوح- أثواب مصنوعة من الشعر- فأراد الفقهاء أن تبقى علي حالها ليري الناس بيوت نبيهم البسيطة فيزهدوا في الدنيا ولا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة، وهو ما يستر ويكن. وقال العلماء في ردهم علي أمر الوليد: "إن البنيان العالي هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة وكل طويل الأمل في الدنيا راغب في الخلود بها. وإزاء هذا الرأي توقف عمر رضي الله عنه وبعث إلي الوليد بما أجمع عليه العلماء وأهل الرأي والشورى. لكن الوليد رفض الاتصياح لرأي الفقهاء ونقذ رغبته هو في هدم المسجد وإعادة بنائه علي أحدث طراز في ذلك الوقت مع توسيعه بمقدار مائتي ذراع طولاً وعرضاً. وللاصاف نقرر أن الوليد كان أبعد نظراً وأصوب رأياً، فقد كثر الناس واحتاج الحرم إلي عدة توسعات فيما بعد كما رأينا في عصرنا هذا. وما كانت تلك التوسعات ممكنة إلا بهدم الحجرات وإضافة مساحتها إلي المسجد. كما أنه لا حرمة لمبنى أو مكان في الإسلام إلا الكعبة المشرفة والمسجد النبوي والقبر الشريف وليس لحجرات زوجات النبي في ذاتها.

وقد تولى عمر بن عبد العزيز إمرة الحج خلال العامين الأولين من خلافة الوليد وصلي بالناس صلاة الاستسقاء فأمطرت مكة وما حولها وأخصبت أرضيها بصورة غير معهودة، ولعلها بركات الوالي العادل أشج بني مروان.

(9)

سار عمر بن عبد العزيز في أهل المدينة سيرة جده العظيم عمر بن الخطاب. وسعد به الصحابة والتابعون لما وجدوا فيه من القدوة الصالحة لغيره من الحكام، و عوضا للمسلمين عما يفعله الحجاج بن يوسف وغيره من عمال الوليد بن عبد الملك .. قال عنه الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه: " ما صليت وراء إمام بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم- أشبه صلاة بالرسول صلي الله عليه وسلم من هذا الفتى " يقصد عمر بن عبد العزيز أمير المدينة. وقال زيد بن أسلم رضي الله عنه: كان عمر يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود .. وجاء إليه رجل صالح ذات يوم فأخبره بأنه رأي النبي صلي الله عليه وسلم في المنام، وكان أبو بكر رضي الله عنه يجلس علي يمينه ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلس علي يساره وأمامهم رجلان يختصمان وبين يدي الرسول صلي الله عليه وسلم كان عمر بن عبد العزيز جالسا.. وقال النبي صلي الله عليه وسلم لابن عبد العزيز: " يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين - أبو بكر وعمر بن الخطاب ". ولم يطمئن عمر بن عبد العزيز حتي أقسم له الرجل أنه رأي هذا في منامه وتحقق من كل كلمة أمره بها الرسول صلي الله عليه وسلم .. حينئذ لم يتمالك عمر بن عبد العزيز وجعل يبكي مشفقا علي نفسه من ثقل التبعة، ووعورة الطريق، وقلة الزاد، وبعد السفر .. ورغم كثرة الصحابة والتابعين الأجلءاء في مكة والمدينة كان عمر بن عبد العزيز- رغم حداثة سنه- يؤم الناس في الحج طيلة سنوات ولايته علي مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم ، اللهم إلا سنة واحدة حج فيها بالناس الوليد بن عبد الملك ، وصحبه عمر خلالها أيضا .. وقد استطاع عمر رضي الله عنه أن يطف من حدة الوليد بن عبد الملك ، وأن يقنعه بالتخلي عن إيذاء كبار الفقهاء والصالحين الذين رفضوا بيعته ، علي خلاف ما كان الحجاج الخبيث يفعل زلفى ونفاقا للوليد .

خرج أشراف المدينة لاستقبال الوليد بن عبد الملك أثناء مروره بها في طريقه إلي الحج، ولم يخرج معهم فقيه المدينة سعيد بن المسيب رضي الله عنه الذي تعرض للضرب والسجن والتشهير لرفضه مبايعة الوليد. وأراد الوليد أن يصلي بالمسجد النبوي الشريف فأخلاه حراسه من الناس، لكن أحدا لم يجرؤ علي إخراج عالم المدينة سعيد بن المسيب من المسجد .. حدث هذا رغم أن العالم الجليل كان يرتدي في تلك اللحظات ثوبا رخيصا ثمنه خمسة دراهم !! ولكن متي كان للثياب دور في تقييم الرجال ، أو احتساب مكانة العلماء وأقدار أهل الطاعة والتقوى ؟

تجاسر أحد الحراس فقال لسعيد: تنح عن المسجد أيها الشيخ فإن أمير المؤمنين قادم .. غضب ولي الله من جرأة زبانية الحاكم ، وسوء أدبهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ لم يفعلها أحد من الخلفاء الراشدين ، فلم تكن الشرطة تطرد العامة من المسجد النبوي ليصلي فيه أبو بكر أو عمر أو عثمان أو علي بن أبي طالب .. ومن هو الحاكم؟ أنه داخل المسجد أو خارجه ليس إلا واحدا من المسلمين، لا فضل له علي الآخرين ، ولا يجوز له أن يتميز علي أفقرهم بشيء سوي التقوى والعلم وحسن الأدب مع الله .. وهكذا أصر سعيد علي عدم طاعة الأوامر ، ورفض أن يغادر المسجد مهما حدث . استولي الرعب علي الحراس فقد كان الوليد جبارا رهيبا إذا غضب ، وخشي الجميع أن ينقم الوليد علي العالم الجليل عزّة نفسه ، وقلة اكرامه بالحاكم ، وبصفة خاصة لأنه رفض أن يبايعه من قبل. ولم يكن ابن المسيب يحب عبد الملك ، وأعلن رفضه القاطع لانتقال السلطة بالميراث البغيض الذي لا شعوري فيه ولا رأي للمسلمين. وكان قد رفض أيضا تزويج ابنته الحسناء للوليد بن عبد الملك وأنكحها تلميذا فقيرا من تلاميذه هو كثير بن وداعة وكان مهرها درهمان فقط!! . مما تسبب في ازدياد سخط عبد الملك وولده علي سعيد .

دخل الوليد إلي المسجد النبوي ومعه عمر بن عبد العزيز . صلي الرجلان في مختلف أرجاء المسجد ، وجعل الوليد يتنقل هنا وهناك ليدعو ويستغفر ربه، وعمر يحاول أن يبعده عن الموضع الذي كان سعيد بن المسيب جالسا فيه وحده .. تلفت الوليد أثناء تفقده للمسجد فرأى الشيخ الجليل .. سأل رفيقه : من هذا؟ أهو سعيد بن المسيب ؟ أجاب عمر بن عبد العزيز: نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم أنك قادم لقام إليك وسلم عليك – قال عمر ذلك كي لا يغضب الأمير علي الشيخ – لم يصدق الوليد وقال لعمر: قد علمت بغضه لنا . فسارع عمر رضي الله عنه بالنفى ، وأثنى علي العالم الجليل، وأفاض في سرد مناقبه وسجاياه حتى أقر الوليد بفضله ومكانته . وقال عمر مدافعا عن الفقيه المسن: يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر – يعني أن ضعف بصره جعله لا يري الخليفة وهو يدخل المسجد فلم يقم له – فرد الوليد : نحن أحق بالسعي إليه .

ورأي الناس يومئذ عجا. الوليد بن عبد الملك أقوي حكام الأرض في تلك الفترة ، الذي فتحت جيوشه معظم قارتي آسيا وأفريقيا وأجزاء كبيرة من شرق أوروبا ، يقف بكل قوته وسلطانه وأمواله خاشعا مترفقا أمام كهل أعزل عليه ثوب بخمسة دراهم !! ويلقي الوليد عليه السلام، فيرد الشيخ الجليل السلام وهو جالس في موضعه لم تهتز في جسده شعرة !! ولم الدهشة ؟ ليس هو نفسه العالم والفقيه الذي رفض من قبل أن يزوج ابنته للوليد ابن عبد الملك بن

مروان وجلب علي نفسه الأذى في ذلك الحين بسبب رفضه لهذه المصاهرة المشرفة بمقاييس أهل الدنيا!!!؟

سأله الوليد: كيف حال الشيخ؟ رد سعيد بن المسيب: بخير والحمد لله وحده.. كيف حال أمير المؤمنين؟ رد الوليد: بخير والحمد لله.. بهذه العبارات القصيرة انتهت المقابلة، ومضى الوليد من المكان وهو يردد مشيرا إلي سعيد بن المسيب: هذا فقيه الناس!! إنه الإسلام العظيم الذي يربّي في النفوس العزة والكرامة والشجاعة، فلا ترهب إلا الله ولا تخضع لسواه.

(10)

ويبدو أن الحجاج بن يوسف الثقفي عزّ عليه أن يسمع ثناء الناس ودعوا تهم لعمر بن عبد العزيز، بينما كانوا يصبّون عليه لعناتهم ليل نهار لما يسفك من الدماء ويستحل من المحرمات وإن كان مجتهدا متعبدا فيما دون ذلك .. اشتعل حقد الطاغية الثقفي أكثر وكاد صدره ينشق غيظا عندما سمع برأي عمر فيه ، وعلم أنه أرسل إلي الوليد يطالبه بإبعاد الحجاج لكف الظلم عن الرعية. وجاء بالرسالة علي لسان عمر: " إن أهل العراق في ضيم وضيق مع الحجاج لظلمه وغشمه، ولو جاءت كل أمة بخطاياها ، وجاء بنو مروان بالحجاج وحده لكفاهم". وطالب الحواري الصالح ابن عمه – الخليفة – بعزل الحجاج والقصاص منه ورد حقوق المسلمين المغتصبة إليهم. وكعادة كل الظالمين المستبدين، تشبث الحجاج بكل قواه بموقعه وكرسيه ، ولجأ إلى الدس والوقيعية بين الوليد وعمر بن عبد العزيز ليبقي في منصبه .. كتب الطاغية إلي الوليد بن عبد الملك يحذره من خطورة استمرار عمر بن عبد العزيز في ولايته علي المدينة ومكة ، زاعما أن سياسة عمر من شأنها أن تفسد الرعية علي الخليفة ، ولا تستقيم معها أحوال الدولة ! وقال طاغية العراق للوليد: " إن عمر ضعيف عن إمرة الحرمين ، وهذا ضعف في الحكم، فاجعل علي الحرمين- مكة والمدينة – من يضبط أمرهما"!!! .. وآثر

الوليد الدنيا والهوى فأبقي علي السفاح الثقفي ، وعزل والي المدينة العادل!!

كذلك أغري الحجاج بن يوسف أميره الوليد بن عبد الملك بخلع أخيه سليمان من ولاية العهد ليعهد بدلا منه إلى ابنه عبد العزيز بن الوليد .. إنها ذات اللعبة الخبيثة التي فشل في إتمامها مع عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز !! وقد فشل هذه المرة أيضا بسبب رفض عمر بن العزيز. وانتهز الحجاج الفرصة الساتحة فألهب صدر الوليد وحرّضه علي ابن عمه، ومازال به حتى أمر بحبسه في مكان سدت جميع منافذه ليموت جوعا وعطشا !! وتسامع الناس بما فعل الوليد بزوج أخته وابن عمه حاكم المدينة السابق الذي تحدثت بورعه وعلمه وتقواه الركبان في البوادي ، والمنتديات في الحضر.

وبدأت بوادر ثورة شعبية هائلة تلوح في الأفق، ونقل جواسيس الوليد إليه ما يتحدث به الناس في سخط متزايد عن اعتقال عمر بن عبد العزيز لوقوفه ضد الظلم والطغيان. ورأى الوليد أجواء البلاد مليئة بسحب قاتمة من غضب يوشك أن يمسي جحيما لا يبقي ولا يذر، فاضطر إلى إخلاء سبيل ابن عمه بعد ثلاثة أيام فقط - قبل اندلاع الثورة في دمشق ومكة والمدينة وغيرها من بلاد المسلمين.

وشاء القدر أن تعم الفرحة بعد ذلك بقليل بهلاك الحجاج الثقفي - في سنة 95هـ - وبموته انهار ركن كبير من أركان دولة بني مروان واستراح أهل العراق أخيرا من إجرامه وطغيانه . كما لم يلبث الوليد بن عبد الملك أن مرض وتوفي في يوم السبت منتصف شهر جمادى الآخرة عام 96 هـ. وحمل جثمان الوليد إلى قبره . وخطب عمر بن عبد العزيز الذي صلي عليه وتولي دفنه في الناس ووعظهم قائلا: " هذا الوليد بن عبد الملك يلقي ربه .. فالיום ننزله غير موسد ولا ممهد، قد خلف الأسلاب، وفارق الأحباب، وسكن التراب ، وواجه الحساب، فقيرا إلي ما قدم ، غنيا عما أخر".

(11)

تولي الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك واستهل عهده بتعيين ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشارا ونائبا له .. وقد كان سليمان عاقلا عادلا شديد التواضع يريد الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولم يكن يلهث وراء مجد شخصي زائل ، ولهذا لم يجد عيبا في أن يصارح ابن عمه وزوج أخته عمر بن عبد العزيز قائلا : " إننا قد ولينا ما تري، وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة الناس فمر- أصدر أمرا به - فليكتب ". وقد أعطي بذلك لمستشاره عمر بن عبد العزيز- تفويضا صريحا بلا حدود لاتخاذ ما يراه صالحا من قرارات وتنفيذه علي الفور.. وكان عمر رضي الله عنه وزير صدق عند حسن الظن به ، فبدأ رضي الله عنه بنواب الحجاج علي البلاد فعزلهم وأراح الناس من ظلمهم، وأمر بإطلاق جميع السجناء والأسري الذين اعتقلهم الحجاج الثقفي بلا نيب . وكان عددهم يزيد علي 81 ألف سجين منهم 30 ألف امرأة !! وقرر عمر تخصيص جزء كبير من موارد الدولة للإتفاق علي الفقراء والمساكين وغيرهم من المستحقين، وخاصة في العراق التي حرم الحجاج معظم أهلها من أنصبتهم المستحقة في بيت المال. وأمر برد الصلاة إلي ميقاتها. وكان الحكام من بني مروان يؤخرون الصلوات عن أوقاتها إتباعا للهوى بلا نص شرعي أو سنة ثابتة . وكان من أوامره إرسال جيش كبير لغزو القسطنطينية وجهاد أهلها الذين بغوا علي جيرانهم من المسلمين .. واستمر هذا حال الخليفة ونائبه طوال فترة حكم سليمان- سنتان وثمانية أشهر - وقد شهد

الكثيرون لسليمان بن عبد الملك بالتقوى والصلاح، وذكروا أنه كان شديد الورع يحافظ على الصلوات، و ينهي عن الغناء لأنه رسول الشيطان ، ويبكي من خشية الله .
وقد حج رضي الله عنه بالناس سنة 97 هـ ، فعجب لكثرة الحجيج ، وقال لعمر بن عبد العزيز :
:ألا تري هؤلاء الحجاج الذين لا يحصي عددهم إلا الله ولا يسع رزقهم غيره؟! فقال له عمر :
يا أمير المؤمنين هؤلاء رعاياك اليوم، وهم خصماؤك غدا أمام الله تعالى. فبكي سليمان بحرارة
وقال: بالله استعين.

ثم خرج سليمان بن عبد الملك إلي مرج دابق بعد خروج جيش أخيه مسلمة بن عبد الملك لفتح القسطنطينية وتأييد الرومان الذين غدروا بجانب من جيش المسلمين ، وأوهموهم بالمصالحة والأمان، ثم قتلوا عددا منهم وأسروا الباقين. وأقسم سليمان ألا يرجع إلي دمشق حتى يفتح الجيش مدينة القسطنطينية أو يقبضه الله إليه قبل ذلك . وشاء القدر أن تتحقق الثانية، إذ أصيب سليمان بالحمى وأحس أسفا باقتراب أجله قبل أن يأتي خبر النصر.

وجاء إليه الوزير الصدوق رجاء بن حيوة فسأله سليمان : لمن يعهد بأمر المسلمين؟ أجاب رجاء : إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يوئي علي المسلمين رجلا صالحا. قال سليمان : ما تقول في ابني داود؟ أجاب رجاء : إنه غائب عنك – كان في جيش مسلمة الذي توجه لفتح القسطنطينية – ولا ندرى هل حي أو ميت .. عاد سليمان يرشح ابنا له صغيرا لم يبلغ الحلم فعارضه رجاء بن حيوة حتى صرفه عن ذلك . سأله سليمان : ما تري في عمر بن عبد العزيز؟ استبشر رجاء خيرا وقال: أعلمه والله خيرا فاضلا مسلما يحب الخير وأهله . صاح سليمان: هو والله علي ذلك – يقصد أنه سينفذ ترشيحه لعمر بن عبد العزيز وإن رفض إخوته أبناء عبد الملك – وهنا فكر الوزير الذكي لبعض الوقت ، ثم قال لسليمان : أري أن تجعل ولاية العهد بعد عمر بن عبد العزيز ليزيد بن عبد الملك ليرضي بذلك بنو مروان . ووافق سليمان وكتب عهده لعمر واستدعي كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة فقال له : اجمع أهل بيتي ومرهم فليبيعوا علي ما في هذا الكتاب – مغلقا – فمن أبي منهم فاضرب عنقه. وجاء إخوة سليمان والأمراء والوجهاء وأبناؤهم وأبناء عمومته ليزوروه وفوجئوا به يأمرهم بالبيعة لمن عهد إليه في الكتاب المختوم قبل أن يموت.

(12)

أما عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقد أدرك بفراسته أنه هو المرشح ولا أحد سواه، إذ لا مبرر لإخفاء اسم خليفة سليمان متى كان أحد أخوته أبناء عبد الملك، فهم لن يتصارعوا طالما بقيت لأحدهم.. وكان سبب تخوف عمر رضي الله عنه من المسئولية الثقيلة رؤيا زار فيها النبي صلي الله عليه وسلم في روضة خضراء ، وأخبره بأنه سيلي أمر الأمة ، وحذره من

الوقوع فيما وقع فيه من سبقوه ، وخاصة إراقة دماء المسلمين. وفي رؤيا أخري قال له الرسول صلي الله عليه وسلم : ادن – اقترب يا عمر، فأطاع عمر واقترب منه حتى خشي أن يصطدم به، فقال له صلي الله عليه وسلم : " إذا وليت فاعمل نحواً من عمل هذين " وأشار الي كهلين بجواره ، فسأله عمر : ومن هذان ؟ فأجاب صلي الله عليه وسلم : " هذا أبو بكر وهذا عمر بن الخطاب " .

حينئذ أحس عمر بن عبد العزيز أنه هو الذي استقر رأي سليمان علي ترشيحه للخلافة ، فذهب إلي رجاء بن حيوة وقال له : أنشدك الله وحرمتي ومودتي أن تعلمني إن كان كتب لي ذلك – الخلافة – حتى أستعفيه منها قبل أن يأتي حال لا أقدر فيه علي ما أقدر عليه الآن. لكن رجاء رفض بإصرار أن يطلع عمر علي شيء مما كتبه سليمان في عهده المختوم . ثم جاء هشام بن الملك إلي رجاء فقال له: يا رجاء إن لي بك حرمة ومودة قديمة، فأخبرني عن هذا الأمر – الخلافة – إن كانت إليّ علمت وإن كان لغيري نظرت ما يمكنني عمله ، فما مثلي يفوته هذا .. ورفض الوزير الأمين أن يطلع شقيق الخليفة أيضا علي شيء . وعندما سعدت روح سليمان بن عبد الملك إلي الملأ الأعلى ، جاء كعب بن حامد صاحب الشرطة ورجاء بن حيوة فجمعا الناس في المسجد الكبير بدابق وأخذوا البيعة مرة ثانية لمن في الكتاب. تغيرت وجوه بني مروان عندما قرأ عليهم رجاء بن حيوة عهد سليمان بن عبد الملك إلي عمر بن عبد العزيز . وغضب هشام بن عبد الملك وكان أكثر إخوته طمعا في الخلافة ، وأعلن رفضه مبايعة عمر بن عبد العزيز.

نهره رجاء بن حيوة رضي الله عنه ، وقال له بحزم : " أضرب عقك والله .. قم فبايع " .. وهذا البايقون عندما سمعوا أن ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك ، فقاموا جميعا ليبايعوا عمر بن عبد العزيز .. كان عمر رضي الله عنه جالسا في مؤخرة المسجد مشفقا يرتجف مما يسمع.

عندما تأكد أنه ابتلي بالخلافة ، راح يردد: " إنا لله وإنا إليه راجعون !!! " إنها قولة المؤمن إذا أصابته مصيبة ، فهل المنصب الذي تطمح إليه أبصار وأفئدة الكثيرين ، ويتصارعون عليه ، ويتفانون من أجله ، يمثل عند هذا الشاب التقي مصيبة يسترجع وينن لوقعها عليه ؟! أجل .. أنها لكبري المصائب والتبعات ، أن تلقي أحمال منات الملايين من المسلمين وأهل الذمة وهمومهم وآلامهم وأمالهم علي كتفي رجل واحد كأننا من كان .. وقد كان عمر رضي الله عنه يعلم أنها أمانة عسيرة الحساب ، شديدة العناء ، لا قبل لبشر بها إلا من أعان الله وقليل ما هم. حاول أن يقوم من مكانه فأبت قدماه أن تحملانه .. مكث برهة يغالب نفسه المأخوذة من رهبة المسئولية. أدرك رجاء بن حيوة بفطنته ما حدث للأمير، فأمر الحراس بحمله حتى وضعوه علي المنبر، وأمر الناس فأقبلوا متهللين يبايعون الخليفة الجديد ، ونهض عمر بعد فترة

ليخطب في الناس .. إنه ما زال يحاول تخليص عنقه من أغلال الحكم وأهوال السلطة ، ومن حسراتها وأحزانتها يوم القيامة إلا من رحم الله .. وقد كان يأخذ علي من قبله أنهم يتداولون الحكم فيما بينهم بغير شوري أو اختيار حر من المسلمين، فكيف يقبل اليوم لنفسه ما أنكره علي غيره بالأمس ؟

وتكلم أخيرا فكان أول ما قاله : " أيها الناس إني لست بمبتدع ، ولكني متبع ، وإن من حولكم من الأمصار – الأقاليم – والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم رفضوا فلست لكم بوال .. ويروي أيضا أنه أعفي من بايعوه وطالبهم باختيار وال آخر بدلا منه !! إنه الورع والتعفف وعمق الفقه والبصيرة .. فإذا كان الإسلام ينهي الفرد عن إمامة المصلين – في الصلاة – بغير رضا منهم ، فكيف يتولى الخلافة عليهم بدون أذنهم ورضاهم ؟ ألمجرد أن الخليفة السابق اختاره لهذا المنصب؟! لقد أن الأوان ليعود الحق إلي نصابه ، ويترك اختيار الحاكم للرعية ، كما فعل الرسول صلي الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده.. ارتج المسجد بصيحات مدوية تجدد البيعة للأمير الراشد ، وتلح عليه في التراجع عن موقفه ، فما يصلح لها غيره، وما يرتضون به بديلا، وقد علموا أنهم إذا تركوه يعودون إلي سابق العهد المرير من الملك العضوض و الاستبداد البغيض الذي نغص علي الأتقياء دينهم وعيشتهم. وعندما أيقن عمر أنه لا مفر أمامه من قبول المسؤولية خطب في الحاضرين مرة أخرى قائلا " أيها الناس .. من صحبنا فليصحبنا بخمس وألا فليفارقنا .. يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفع حاجته ، ويعيننا علي الخير بجهد ، ويدلنا من الخير علي ما لا نهتدي إليه ، ولا يفتابن عندنا أحدا ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه " .

بهذه الكلمات البليغة الموجزة وضع عمر دستور التعامل بينه وبين رعيته وعماله وحاشيته .. وعندما سمع الناس ما قال الخليفة الجديد أيقن العلماء والصالحون والزهاد أنهم وجدوا أخيرا بقية من رشد الخلافة الأولى وتقواها، وينس الظالمون والمنافقون وبطانة سوء ، وقام كل مظلوم ومقهور ومجني عليه يبغى القصاص ورد المظالم علي يدي راشد بنى مروان .

(13)

بعد دفن سليمان بن عبد الملك جاء الحراس بمراكب الخليفة ، وهي جياد ثمينة عليها فرش وزينة فاخرة .. تطلع عمر إلي الخيول وهو يتمتم : " ما شاء الله لا قوة إلا بالله " .. كل هذه الخيول وزينتها باهظة الثمن من أجل رجل واحد !! حتى لو كان هو حاكم المسلمين ، فماذا عليه لو قع بدابة واحدة ، وتخلص من هذا الموكب المهيب الذي هو إلي الرياء والمفاخرة أقرب من أي شيء آخر ؟ ثم كيف يرضي الحاكم بأن يخصص له مثل هذا الموكب بالغ الإسراف؟!

وكان القرار الأول الذي أصدره الخليفة الجديد هو بيع خيول موكب الخلافة وزينتها ولوازمها ، وإيداع ثمنها بيت مال المسلمين .. ومضي رضي الله عنه إلي بيته مهموماً ، فسأله أحد مرافقيه: مالك مهموماً هكذا وليس هذا وقت الهم والغم ؟ قال له عمر :

" ويحك .. ومالي لا أعتم ، وليس أحد من أهل المشارق والمغرب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني أن أؤدي حقه إليه ، كتب في ذلك إلي أو لم يكتب ، طلبه مني أو لم يطلب " .. هكذا كان يفكر العبد الصالح الذي يقدر المسؤولية ، ويدرك التبعية .. وعندما جاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه حاملاً الحربة – علي عاداته في مواكب من سبقه من الخلفاء – نهره عمر وأمره بأن ينتحى عن موضعه ، فما الخليفة إلا رجل من المسلمين .. وعندما وصل عمر إلي دمشق توجه إلي المسجد فصعد المنبر أيضاً وقال للناس : إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي مني فيه ولا طلب له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون.. تصايح الحاضرون بصوت واحد : قد اخترناك لأنفسنا ورضينا بك كلنا: .. لا مفر إذن يا عمر فهذا قدرك المحترم .قالها لنفسه يائسا من تراجعهم عن بيعته. بعد برهة حمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم الملذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدا حقا .. أيها الناس .. من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصي الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإن عصيت ربي فلا طاعة لي عليكم " .

وفور نزوله من المنبر أمر بالستائر والثياب التي كانت توضع للخلفاء فعرضت للبيع ، ووضع ثمنها في بيت المال .. وأبى رضي الله عنه أن ينزل بدار الخلافة حتى تفرغ بعد حين من آل سليمان بن عبد الملك .. ولم يكد عمر يضع رأسه علي وسادة في بيته ليستريح – وقت الظهيرة – حتى طرق عليه ابنه عبد الملك الباب .. قال لأبيه : أتقيل – تستريح وقت القيلولة – يا أمير المؤمنين ، ولا ترد المظالم إلي أهلها ؟ قال عمر : إني قد سهرت البارحة في أمر سليمان – دفنه – فإذا صليت الظهر رددت المظالم . قال له ابنه : ومن يضمن لك أن تعيش إلي الظهر؟ إنها ذرية بعضها من بعض حقا . قبل عمر ولده سعيدا بتقواه ونصحه له بالخير، وقام من فوره إلي المسجد حيث نادي مناديه أصحاب الحقوق والمظالم ليعرضوها علي الخليفة .. كانت المظلمة الأولى هي شكوى أحد الذميين – أهل الكتاب – من أن العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصب أرضه بحمص .. كان العباس موجودا فسأله عمر : ما تقول يا عباس ؟ أجاب العباس : نعم .. أعطاني أبي هذه الأرض – وقت خلافته – وكتب لي بها سجلا – عقدا – قال

عمر : ما تقول يا ذمي ؟ أجاب الرجل : يا أمير المؤمنين كتاب الله تعالى .. قال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد .. يا عباس قم فرد إلي هذا الرجل أرضه ، وأطاع العباس بلا تردد .

جاء عمر إلي بيته .. أسرع إلي زوجته الحسنة فاطمة بنت عبد الملك لتهنئه بالخلافة .. ذهلت عندما رأت ما يكسو وجهه من شحوب وهم .. تركته داخل المسجد الصغير الذي أقامه في ركن من بيته حيث جلس واضعا يده علي خده و تساقطت الدموع من عينيه .. روعت فاطمة . أقبلت عليه تسأله في فزع : مالك ؟ أجاب عمر "يا فاطمة .. إني قد وليت من أمر هذه الأمة ما تعلمين ، ففكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعمري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأسير ، والشيوخ الكبير ، وذوي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباهم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت إن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد – صلي الله عليه وسلم – فخشيت أن لا تثبت لي حجة عند مخاصمته ، فرحمت نفسي فبكيت .. راحت فاطمة توأسيه ، وتهون عليه .. تطلع إليها .. إنها شريكة عمره ، وأم ولده ، وابنة عمه ، لكن عمر رضي الله عنه كان يفكر في أمر ، طالما نغص عليه صفاء روحه ، وظلل حبه لزوجته فاطمة بسحابة من الاستياء والضيق . لقد آثرها أبوها عبد الملك بن مروان بجواهر جاءت إليه من غنائم الفتوحات الكثيرة في عهده . وقد كان عمر يكره أن يراها علي جسد زوجته وهو يعلم جيدا أن مكانها هناك في بيت مال المسلمين .. وقد بدأ خلافته برد الحقوق إلي أهلها حتى خاتم صغير أعطاه له الوليد يوما قام برده إلي بيت المال، وعليه الآن أن يمضي حتى نهاية الشوط ، ولا ينسي أهله والمقربين إليه .. قال لفاطمة : أي زوجتي الحبيبة . عليك الآن أن تختاري .. إما أن تردّي هذه الحلي إلي بيت المال ، أو أن تأنني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهذه الحلي في بيت واحد .. دمعت عينا فاطمة . لقد أحببت عمر منذ باكورة الصبا لتقواه ومكارم أخلاقه وعلمه، ولم يدر في خلدنا يوما أن تفكر في المفاضلة بين الحياة معه وبين كل أموال الدنيا ونعيمها الفاني ، وإنما لتعلم علم اليقين أنه صادق في رد أموال المسلمين إليهم، وأن زوجها رجل لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا يبيع دينه لإرضاء صاحبة أو ولد .. هتفت على الفور : بل اختارك عليه وعلي أضعافه .. قامت إلي حجرتها فجمعت حليها ، وخلعت ما كانت ترتدي، وجاءت بكل ثمين وغال من متاعها ووضعته كله في صندوق بين يدي زوجها ، فأمر بحمله إلي بيت المال .. سألته فاطمة : هل استرحمت الآن يا أمير المؤمنين ؟ رد عليها قائلا أن هناك أمرا ثانيا يريد إطلاعها عليه .. تطلعت إليه في لهفة. نادى رضي الله عنه كل جواريه. أقبلن بسرعة ليسمعن ما يقول .. راح يتفرس فيهن ، وينقل بصره بينهن .. لطالما استمتع بهن أيام

الفراغ والشباب والنعيم ، أما الآن فقد نزلت به أمور جسام ربما منعته من أداء حقوق نسانه عليه ، وحاشا لله أن يترك مشاكل المسلمين ومصائرهم لينعم بالتعطر والتنقل بين مخادع نسانه، وإن كان ذلك كله حلالا طيبا يوجب عليه. قال لهن: قد نزل بي أمر شغلني عنكن: فمن أحببت أن أمسكها أمسكتها وإن لم يكن مني إليها حاجة- يقصد أنه لن يكون متفرغا لهن – فبكت الجوارى وعلت صرخاتهن حزنا علي حرمانهن من سيدهن الذي يحبه الجميع، وأثرن البقاء معه علي الحرية. وكذلك بكت فاطمة رضي الله عنها عندما خيرها عمر بين البقاء معه بلا فراغ منه لها ، وبين الطلاق ، ورضيت بالبقاء إلي جانبه لتعينه علي أمر الخلافة مهما كلفها ذلك من تضحيات .. وكذلك أعتق عمر أحب جواريه إلي قلبه وكانت من بلاد المغرب بغير أن يقربها، عندما علم أنها وقعت في الأسر بطريق الخطأ، وأن واليه هناك اتخذها جارية لمعاقبة والدها على جنائية ارتكبتها، فأمر الخليفة بردها إلي أهلها حرّة كريمة لم يمسه أحد بسوء .

(14)

أنجز عمر رضي الله عنه خلال فترة خلافته القصيرة-عامان ونصف فقط- من الأعمال الخالدة، ما لا يستطيع غيره إنجازه في عشرات السنين وما يستعصي على الحصر. فقد بسط العدل في كل أنحاء البلاد الإسلامية من أفغانستان والهند شرقا إلى أقصى بلاد المغرب العربي غربا. وعم الرخاء الجميع على نحو لم يسبق له مثيل . ثم هناك أيضا بسط الأمن بلا بطش أو سفك للدماء كما وقع في عهود من سبقوه من حكام بنى أمية. وتحرر في عهده المبارك مئات الألوف من العبيد والجوارى. فقد فاضت أموال الزكاة والخراج والصدقات في خلافته، ولم يجد ولاته على الأقاليم فقراء يعطونها لهم ، فاشترى بها مئات الألوف من العبيد وأعتقوهم .و من أعمال عمر رضي الله عنه أيضا المذكورة إنقاذ جيش مسلمة بن عبد الملك، من مكيدة خبيثة نصبها له الرومان قرب القسطنطينية.

والقائد العبقرى الشجاع ليس هو ذلك الذي يهاجم بجرأة وبسالة فقط ،إنما هو الذي يتقدم وينقض حين تكون الظروف مواتية لذلك، وينسحب بانتظام عندما يكون الاستمرار في القتال ضربيا من الجنون والانتحار. وقد كان عمر رضي الله عنه من الأتقياء الذين يضمنون بالدماء الطاهرة الذكوية، أن تراق عبثا في معركة خاسرة. ولهذا أرسل إمدادات عاجلة من الطعام والمؤن، إلى جيش مسلمة، وأمره بالعودة إلى الشام بعد أن انقضت على الجنود فترة طويلة قاسوا خلالها من ندره الطعام والماء وسوء الأحوال الجوية وغدر الأعداء.

وطوال عهد عمر قل نشاط الخوارج المناهض للدولة، فقد أحجم الكثيرون منهم عن مناصبة الخليفة العادل العدا، وأيقنوا أنهم لن يجدوا عليه من المآخذ والعيوب ما كانوا يجدونه فيمن سبقوه من حكام بني أمية. أما القلة القليلة التي أصرت على الباطل، فقد وكل بها عمر جيشاً شنت جماعتها وكسر شوكتها، بعد أن عجز الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة عن كبح جماحها.

كان رضي الله عنه ينهى جنوده عن قتل من لا يحاربهم من الخوارج، ويأمر الولاة بأن يحبسوا من يؤذي الناس منهم، بعض الوقت حتى يهتدي إلى الحق أو يجعل الله له سبيلاً. كذلك أبطل عمر ما كان بعض الأمويين قد ابتدعوه من الشر والبهتان وقطيعة الأرحام. فقد كان بعض من سبقوه يأمرون خطباء المساجد بسب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على المنابر، فلما ولى عمر الخلافة نهى عن ذلك، وكتب إلى نوابه في البلاد يأمرهم باستبدال السباب والفسوق والعصيان بأية من كتاب الرحمن تقول: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون". ولا تزال هذه الآية الكريمة تتلى على المنابر إلى يومنا هذا. وكان يثني على الإمام علي. ويقرب إليه بنته و أحفاده، ومن يأتيه من بني هاشم لقرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال لأحدهم ذات مرة: إني أستحي من الله أن تقف ببابي ولا يؤذن لك.

وقال لآخر: إني أرغب بك عن دنس الدنيا - يقصد أنه لا يوليه منصباً في خلافته - لما أكرمكم الله به... ويصف ما كان بين بني هاشم وبني عمهم من الأمويين من تنافس قائلاً: كنا وبنو عمنا آل هاشم نتسابق، مرة لنا - نسبقهم في الفضل - ومرة لهم، نلجأ إليهم ويلجأون إلينا حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق - هالك - وأخرست كل منافق، وأسكتت كل ناطق. ولهذه الخصال النبيلة والسجيا الكريمة أحبته الرعية وأحبه آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كانت فاطمة بنت علي كرم الله وجهه تنثني عليه بعد موته، وتقول: جزاه الله خيراً لو كان بقي لنا ما احتجنا بعده إلى أحد". ولا عجب فإنه أحد الذين جعل لهم الله محبة في القلوب بغير سعي منهم للظفر بها، وذلك جزاء المتقين.

(15)

لم يكن عجبيا أن يؤيد الله عمر بن عبد العزيز بالكرامات المادية والمعنوية، لأن من أطاع الله أطاعه كل شيء ، ومن خاف الله هابه كل شيء ، والله سبحانه أكرم من أن يترك وليا له بغير عون على ما يريد من الإصلاح وتقوى الله في كل أمر ... كانت الذناب تعيش مع الأغنام في مكان واحد فلا تفترسها !! وكان الناس يذهلون لهذا المشهد الذي لم يروا له مثيلا من قبل ولا من بعد ... يقول حسن القصاب رضي الله عنه: رأيت الذناب ترعى مع الأغنام في البادية أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز، فقلت: سبحان الله ... ذنب في غنم لا يضرها !

فأجابني الراعي: إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس ... وقال التابعي الجليل مالك بن دينار رضي الله عنه: لما ولي عمر بن عبد العزيز تساءل الرعاة في أقصى البادية: من هذا الرجل الصالح الذي قام خليفة على الناس، فإن عدله كفّ الذناب عن أغنامنا؟! وقال موسى بن أعين: كنا نرعى الأغنام في " كرمان " في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاة ترعى مع الذناب بسلام ، وذات يوم هجم الذناب على الشاة ليفترسها، فقلت: " إنا لله وإنا إليه راجعون " ما أرى الرجل الصالح إلا قد مات. وحسبنا تلك الليلة فوجدناه قد مات فيها بالفعل.

ورأى أحد أبناء خراسان في منامه هاتفا يقول له: إذا حكم أشج بني مروان فاذهب إليه، وباعه فإنه إمام عادل ... وظل الرجل يتساءل كلما ولى خليفة عن طباعه حتى جاء عمر بن عبد العزيز، فرأى هذا الرجل في منامه نفس الهاتف الذي جاءه من قبل ثلاث مرات أخرى، فارتحل إلى الشام وباع عمر رضي الله عنه. وكان الله تبارك وتعالى يبشّر عبده الصالح بالخير، ويعينه على فساد الزمان وقلة الأعوان كيلا يحزن أو يضعف عن أمر المسلمين ... رأى عمر نفسه ليلة محمولا إلى أرض خضراء واسعة فيها قصر أبيض بلون الفضة ... وخرج مناد من القصر فهتف: أين محمد بن عبد الله رسول الله؟ فأقبل الرسول صلى الله عليه وسلم حتى دخل القصر. ثم نادى أبا بكر بن قحافة فدخل، ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب ثم عمر بن عبد العزيز فدخلوا جميعا رضي الله عنهم ورضوا عنه ... وجد عمر بن عبد العزيز نفسه جالسا في القصر إلى جوار جده الفاروق عمر بن الخطاب فامتلت نفسه حبورا ورهبة .. أحس أنه الآن بالأفق الأعلى حيث القرب من الحضرة الإلهية المقدسة ... كان النور الساطع يملأ عيني عمر بن عبد العزيز وقلبه ... إنه النعيم المقيم حيث لا مزيد ولا قبل ولا بعد. حيث ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت وما لا خطر على قلب بشر. إنه الآن أمام النور الأزلي الخالد، وإلى جواره يجلس النبي والصدّيقون والشهداء والصالحون وأكرم بهم من رفاق يشرف بهم الجن والإنس والملائكة أجمعون.

حاول ابن عبد العزيز أن يرى شيئا فلم يقدر ... بعد لحظات سمع مناديا من قبل الحضرة الإلهية المقدسة ولم يره ... هتف به الصوت الخالد: " يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه واثبت على ما أنت عليه " .. أجل، كان لا بد أن يجد عمر رضي الله عنه هذا التثبيت من رب السماوات السبع ورب الأراضين ورب العرش العظيم. فهو العوض عن كل ذي عوض، وهو السلوى عن كل مصيبة، وهو سبحانه نعم المولى جلت قدرته. ثم تلقى عمر بن عبد العزيز إذنا بالانصراف في رؤياه. واستيقظ باكيا سائلا ربه العون والتثبيت في اليقظة كما رأى في المنام.

(16)

عمت بركات الحاكم الصالح أمته في المشرق والمغرب. يقول عمر بن أسيد رضي الله عنه: والله ما مات عمر حتى كان الرجل من رعيته يأتينا بالمال الوفير – الزائد عن حاجته – فيقول: اجعلوا هذا المال حيث ترون – من أوجه الإنفاق في الخير – فما يبرح إلا ومعه ماله كما جاء به، لقد أغنى عمر الناس !

وكتب إليه واليه على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب يخبره بأن أموال بيت مال العراق قد زادت عما كانت عليه في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي – الطاغية الشهير- أضعافا كثيرة ، وأنه لم يجد مصرفا لهذه الأموال الطائلة بعد أن شبع الفقراء، واغتنى المساكين، وأمن أبناء السبيل على طعامهم وشرابهم، في كل مكان ينزلون به. حمد عمر ربه على نعمته، وخطب في الناس ليعظهم بذلك، فإن ظلم الحجاج وبطشه نزع البركة من الأرزاق والأقوات، وجاء عدل من بعده من الولاة على العراق بالخير والبركات.

وأمر عمر ولاته على العراق وغيره من البلدان بأن ينفقوا فائض الخراج والزكاة على الشباب الراغب في الزواج ليغض بصره ويحصن فرجه، ويكثر نسل الموحدين بالله المسلمين له. فإن فرغوا منهم فليعطوا المدنيين والغارمين، وأبناء السبيل وغيرهم من أصحاب الحقوق. ولم ينس عمر رضي الله عنه طلبه العلم، فأوصى بأن يفرض الولاة نصيبا وافرا من المال لكل من ينقطع متفرغا للدراسة والتحصيل، في مختلف العلوم الدينية والدنيوية النافعة ، لأن هؤلاء هم أمل الأمة وشعلة حضارتها الموعودة ، وبغيرهم يسود الظلم والظلام والجهل في ديار المسلمين .

وكان عمر رضي الله عنه يرسل كل يوم من ينادي : أين اليتامى ؟ أين أبناء السبيل ؟ أين طلبه العلم ؟ أين ... أين ؟ فيعطي كلا منهم حاجته من المال ليجنبه مذلة الفقر وليتعفف عن سؤال الناس . لكنه مع كل هذا السخاء لأصحاب الحق في بيت مال المسلمين ، كان شديد

الصرامة مع غيرهم من الحاشية والأقارب والمنافقين والمدّاحين . كان للخليفة ستمائة شرطي وحارس خاص له ، فقال لهم عمر : إن لي عنكم بالقدر حاجزا والأجل حارسا ، فمن شاء منكم فليلحق بأهله ، ومن بقي فليس له سوي عشرة دنانير. وكتب إليه أحد عماله يخبره أن المدينة التي يحكمها قد خربت ويطلب منه دعما ماليا ليعيد بناء ما تهدم ، ويرمم منها ما تصدع. فرد عليه عمر: حصّن مدينتك بالعدل ، وطهر طرقاتها من الظلم فإن هذا وحده هو ترميمها . وكتب إليه وال آخر يشكو من كثرة من يعتقدون الإسلام لأن هذا يعنى توقفهم عن دفع الجزية ، فرد عليه الخليفة العظيم: إن الله تعالى بعث النبي محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا. وجاء إليه الشعراء عندما تولي الخلافة ، فمكثوا أياما واقفين علي بابة لا يؤذن لهم ، حتى جاء عدى بن أرتاة فأنشده " جرير " الشاعر المشهور أن يستأذن لهم الخليفة ، فقال عدى لعمر رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك ، سهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ، يقصد أن يلفت انتباهه إلي ضرورة كسب ود الشعراء بالعطايا والهبات ، كما كان غيره يفعل فقال له عمر : ويحك يا عدى مالي والشعراء ؟

قال عدى : إن الرسول صلي الله عليه وسلم كان يسمع الشعر ويجزى به. فراح عمر يستجوبه حتى اطمأن إلي أن نبي الهدي كان يسمع الشعر النبيل الهادف ، فأذن لجرير وحده بالدخول لأنه كان الشاعر الأقل فحشا وانحرافا بين الموجودين. قال له عمر : ويحك يا جرير اتق الله فيما تقول ، فأنشده جرير قصيدة طويلة يمدح فيها الرسول صلي الله عليه وسلم وعمر بن عبد العزيز . وأبى عمر أن يعطيه من بيت المال ما ليس له بحق ، وأعطاه مائة درهم فقط من ماله الخاص كنت قد بقيت معه .

وخرج جرير إلي زملائه الشعراء فقال لهم : جنتكم بما يفجعكم ، أمير المؤمنين يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، وأنا عنه راض.

(17)

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنتين وبضعة أشهر كما أسلفنا .. ورغم قصر المدة استطاع الفتى الأموي أن يجدد شباب الإسلام وأن يعيد إلي الأذهان كل خصائص العهد الأول الذي طبّق فيه منهج الله كاملا غير منقوص .. ولم يتحقق له ذلك بسهولة ويسر ، إنما كان الثمن باهظا ، وكانت التضحيات بلا حدود .

كان يعيش وأهله في أدنى درجات الكفاف ، وأبى أن تدخل جوفه لقمة من بيت مال المسلمين ، رغم أنه أحدهم ، ويحق له أن يحصل مثلهم علي نصيب منه .. اشترى له غلامه قطعة من اللحم وشواها له في المطبخ العام الذي يعد فيه طعام الفقراء والمساكين ، فلما علم عمر بذلك أبى أن يأكلها ووهبها لغلامه لمجرد أنها طبخت بوقود من بيت المال !! وسخّن له الغلام بعض

الماء في المطبخ العام ، فأمر بشراء حطب بدرهم من ماله الخاص ليوضع في بيت المال عوضا عن تسخين الماء له في المطبخ !! وكان لا يكتب ليلا علي ضوء مصباح بيت المال إلا لمصالح المسلمين ، أما حاجاته الخاصة فكان يقضيها علي ضوء مصباح آخر يملكه .. وكان شديد التواضع يخدم نفسه بنفسه ، ولا يرهق الخدم أو الرعية بما لا يطيقون .

ولم يضرب عمر بن عبد العزيز أحدا من الرعية سوطا قط طيلة خلافته ، بينما كان من قبله من حكام بني مروان يسفكون الدماء ويستحلون المحرمات لأتفه الأسباب .. كان يعلم أن الله تعالى يغضب أشد الغضب علي الحاكم الخائن لأمته ، كما كان يعلم سوء مصير أي طاغية يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .. ولعل آخر خطبة ألقاها تكشف جوهر هذا الحاكم الراشد ، والكثير من المبادئ الإسلامية العظيمة التي أفني شبابه وماله وعمره كله من أجل تطبيقها ونشرها بين الناس .. سعد رضي الله عنه إلي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانيا بيباق ، ونافدا بما لا نفاذ له ، وقليلًا بكثير ، وخوفا بأمان .

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيكون ما بعدكم للأخرين ، حتى تردون إلى خير الوارثين ، فاتقوا الله قبل القضاء ، وراقبوه قبل نزول الموت بكم ... أما إني أقول هذا ، ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي وأستغفر الله " ... ثم بكى رضي الله عنه حتى ابتلت لحيته وبكى الناس معه ... إنه عمر ذلك الخليفة الذي لم يجامع قط ولم يحتلم وهو خليفة رغم أنه كان في عنفوان الشباب ، وكانت له زوجة من أجمل نساء عصرها ، وجوار فانتات ناعمات من كل جنس ولون .و عندما أصابه مرض الموت جاءوا إليه ببنيه وكانوا بضعة عشر ذكرا وقالوا له : أما تركت لهم شيئا من المال ؟ رد رضي الله عنه بيقين الأولياء : " والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين ، إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير ذلك فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله "

ودعا لهم قاتلا : انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم ... ويروى أن الله تعالى أغناهم من فضله بصلاح أبيهم ، حتى كان أحدهم بعد موت أبيه بسنوات يتبرع بجهاز ألف فارس في الجيش لوجه الله .

ودخل عليه مسلمة ابن عبد الملك فرأى قميصه متسحا فقال لأخته فاطمة : ألا تغسلون قميص المؤمنين ؟ فردت عليه : والله ما له قميص غيره ... ثم بكى وبكى أخوها ومن حولهم رحمة بالرجل الصالح ... وبينما كانت فاطمة وشقيقها مسلمة يجلسان على باب الحجرة التي يحتضر

فيها خير من حكم المسلمين من بني أمية كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يخلق بروحه الطاهرة متأهبا للصعود إلى الفردوس الأعلى . كان يشخص ببصره بشدة إلى أعلى فسأله من حوله : إنك لتتنظر نظرا شديدا يا أمير المؤمنين . رد ولي الله بحبور : إني أرى حضورا كراما لا ترونهم . أخرجوا عني . وعندما تركوه سمعته فاطمة وشقيقها مسلمة يقول بصوت مطمئن مستبشر : مرحبا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان . وكانت روائح ذكية لم يشم مثلها بشر تتبعث من الغرفة ، وصوت ملائكي لا يرون صاحبه يرتل في خشوع : " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين " ... صدق الله العظيم .

أهم المراجع

- 1- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي.
- 2- البداية والنهاية للإمام ابن كثير .
- 3- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني.
- 4- تاريخ الأمم والممالك لابن جرير الطبري.
- 5- تاريخ دمشق لابن عساكر.
- 6- مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي.
- 7- عمر بن عبد العزيز لخالد محمد خالد.